مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 12 عدد: 3، سبتمبر 2023
ص: 395 - 409 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نظرية المعرفة عند تشومسكي وبرونر حول اكتساب اللغة عند الطفل، تحليل ونقد

Chomsky and Bruner's epistemology on language acquisition in children - analysis and criticism-

د.فريدة بن فضة*

Dr. Farida BEN FADA

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر.

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو (الجزائر)

Mouloud MAMMERI Universty Tizi ouzou (Algerie)

benfe_4@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/02/20	تاريخ القبول: 2023/03/23	تاريخ النشر: 2023/09/02

ملخص البحث

يعد موضوع اكتساب اللغة من المواضيع الرائجة لدى علماء اللسان وعلماء النفس على حدّ سواء، ومع بروز النظرية التوليدية والتحويلية لتشومسكي ومن منطلق التمييز بين الكفاية اللغوية والأداء الكلامي تزايد الاهتمام بقضية اكتساب اللغة، فعلى خلاف ما يؤمن به اللساني بأن هناك قواعد كلية تتحكم في عملية اكتساب اللغة لدى جميع الأطفال وفي سن محددة تقريبا، يؤسس عالم النفس جيروم برونر فكرة التفاعل الإدراكي القائمة أساسا على التفاعل الاجتماعي التي ستسهم دون أدنى شك في ما يسميه بجواز مرور الطفل إلى اللغة. وذلك عبر مراحل محددة وجد دقيقة تتأسس على التفاعل مع الأم أو المربية بالدرجة الأولى. هذه المفارقة العلمية بين عالمين أحدهما لساني وآخر نفسي تنطلق مقالتنا هذه للإجابة عن الإشكالية التي سنطرحها في مقدمة هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: اكتساب اللغة. نظرية المعرفة. نظرية تسومسكي. لغة الطفل. التفاعل اللغوي، النمو اللغوي

Abstract :

The issue of language acquisition is one of the important topics for both linguists and psychologists. Interest in the issue of language acquisition has increased with the emergence of Chomsky's generative and transformational theory, and based on the distinction between linguistic competence and verbal

* فريدة بن فضة: farida.benfedda@ummto.dz

performance. Contrary to what the linguist believes that there are universal rules that control the process of language acquisition in almost all children at a specific age, psychologist Jerome Brunner establishes the idea of perceptual interaction based mainly on social interaction, which will undoubtedly contribute to what he calls the child's passage to language. And that through specific and accurate stages based on interaction with the mother or the nanny in the first place. This is a scientific paradox between two researchers, one of whom is a linguist and the other is a psychologist.

This article attempts to answer the problem that we will raise in the introduction to this research.

Keywords: language acquisition. theory of knowledge. Chomsky's theory. child's language. Linguistic interaction, linguistic development.

مقدمة:

يتعلم كل طفل- خلال ثلاث أو أربع سنوات من تاريخ ولادته- لغة ما. والأطفال في هذه السن لا يتلقون دروسا في النحو ولا يتلقون أي تعليم صريح إلاَّ أنَّهم مع ذلك يعرفون القليل عن العالم وطرائقه، ويثير موضوع التعلم عند الأطفال العديد من الإشكالات، لدرجة أنَّ الكبار على قدر عال من التعليم ينفقون سنين طويلة ينتظمون خلالها في قاعات درس وعلى أيدي معلمين محترفين ومع ذلك لا يحرزون تقدما في اللغة الجديدة كما يفعل الأطفال في سن مبكرة.

والسؤال المثير للاهتمام هنا هو: لِمَاذا يجيد الأطفال فعل شيء يبدو أنّه يربك المتعلمين الكبار؟ بعبارة أخرى، كيف يتعلم الأطفال لغتهم؟

أصبحت هذه الأسئلة في النصف الثاني من القرن العشرين مركزية بالنسبة للبحث في مجال اللغة، وكان التعارض بين الإجابات التي يقدمها عالم النفس جيروم برونر((Gérôme. Bruner (1915) وتلك التي يتبناها عالم اللغة نعوم تشومسكي(Noam. Chomsky) (1928)هو الذي يحدد الملامح العامة والخطوات المركزية لهذا النقاش.

1- الأسس الفلسفية والمعرفية لنظرية تشومسكي:

يعد تشومسكي لسانيا أمريكيا مميزا وقد أحدث تغييرا جذريا في عالم اللسانيات الحديثة والمعاصرة، وذلك من خلال طرحه لنظرية نحوية جديدة والمتمثلة في النحو التوليدي، المبنية أساسا على فكرة التحويل.

يعتقد تشومسكي أنَّ ثمة كليات لغوية على مستوى التركيب النحوي للغة التي هي في حاجة ماسة إلى البلورة والتطوير، وهي فكرة فلسفية بالأساس لأنّها تؤمن بفكرة وجود خصائص مشتركة تصلح لجميع اللغات، وهي عبارة عن قواعد نحوية محددّة بيولوجيا في شكل نحو كلي.

لم تقتصر أبحاث تشومسكي على المجال النحوي بل طرح قضايا متنوعة منها محاولة إثبات وجود قدرة فطرية لتعلم اللغة ومشروع النحو العالمي وإبداعية اللغة، وركز اهتمامه على هذه القدرة الفطرية عند الطفل والتي تمكّنه من اكتساب اللغة حيث يقول : " لا توجد اليوم مبررات للأخذ بعين الجدية، موقفا فكريا يعزو تحقيق إنجاز إنساني بالغ التعقيد (اكتساب اللغة) إلى خبرة أشهر أو سنين بدل رده إلى ملايين السنيين من النمو، أو مبادئ تنظيمية عصبية راسخة في القانون الفيزيائي، تشير في النهاية إلى أنَّ الإنسان فريد من نوعه بالنسبة إلى الحيوان من حيث كيفية اكتسابه للمعرفة"[1]

يرى تشومسكي أنَّ الإنسان مزود ببعض الاستعدادات والقدرات والبنى والبرامج الفطرية، وهذه القدرات الفطرية هي التي تجعل من عملية الاكتساب ممكنة. يقول تشومسكي: "إنَّ هو في البدء مسألة ملء بالتفصيل لداخل بنية هي فطرية"[2]

تحتل نظرية اكتساب اللغة مكانا بارزا في اهتمامات تشومسكي اللغوية لارتباطها بالمبادئ المجردة التي تتحكم في بنية اللغة، ويتم بنظره، وضع نظرية الاكتساب اللغوي على النحو الآتي: "لنتأمل أولا كيف يتصرف العالم عندما يدرس هذه المسألة (نظرية الاكتساب) فأول خطوة يقوم بها بشكل طبيعي تكون في أن يختار جهازا عضويا ومجالا معرفيا محددا بصورة معقولة، وفي أن يحاول بناء نظرية يمكن تسميتها نظرية تعلّم الجهاز العضوي في المجال المعرفي. وهذه النظرية يمكن النظر إليها كتنظيم من المبادئ وكآلية أو كخاصية لها بعض المدخلات وبعض المخرجات، فالمدخلات هي تحليل المعطيات في المجال المعرفي من قبل الجهاز العضوي، والمخرجات تكون بنية معرفية بشكل ما. فالبنية المعرفية هي أحد عناصر المرحلة المعرفية التي يتوصل إليها الجهاز العضوي وعلى سبيل المثال، لنعتبر أنَّ الجهاز العضوي هو الإنسان، والمجال المعرفي هو اللغة. فنظرية التعلم المختصة بالإنسان في مجال اللغة تغدو تنظيم المبادئ الذي يتوصل بواسطته الإنسان إلى المعرفة اللغوية"[3]

فالطفل لا يختلف عن الباحث اللساني الذي يسعى باستمرار إلى إعادة بناء هذه المعرفة الخاصة باللغة، واعتبارها كعامل رئيسي في عملية اكتساب اللغة التي يستحيل البت في مظاهرها بصورة إمبريقية.

ومن الحجج التي يقدمها تشومسكي للتأكد على البرمجة التكوينية للغة وعلى الطابع الفطري لاكتسابها نعرضها على النحو الآتي[4] :

- يكتسب كل طفل سوي اللغة من دون القيام بأي مجهود يذكر، ومن خلال تعرض شفاف للغة محيطه، ومن دون أن يتدرج عبر تمارين متخصصة. في حين أنَّ القرد، وإن بلغ حدا معينا من الذكاء، لا يمكنه أن يكتسب الأصول الأكثر تبسيطا في اللغة. فعمل الطفل عمل ذاتي خلاق ينبغي دراسته من حيث هو خاصية إنسانية مميزة.

– إنَّ كلام المحيط الذي يسمعه الطفل من حوله لا يتشكل من جمل أصولية كاملة، فهو يحتوي، في الحقيقة، على نسبة كبيرة من الجمل الناقصة التي تنحرف عن الأصول اللغوية، كما أنَّه يشتمل على عدد متناه من الجمل، في حين أنَّ الطفل حين يكتسب لغته يكتسب كفاية لغوية فيها، أي معرفة ضمنية بقواعد اللغة، التي تتيح إنتاج عدد غير متناه من الجمل المتجددة بشكل دائم، وتفهمها، والحكم على أصوليتها.

– إنَّ الطفل الذي اكتسب اللغة يكون قد نمى في ذاته تصورا داخليا لتنظيم قواعد بالغة التعقيد، يحدد كيفية تركيب الجمل واستعمالها وتفهمها، ولا يكتسب الطفل الكفاية اللغوية فحسب بل يكتسب في الوقت نفسه محتوى الكلام كحقيقة بحدّ ذاتها، ويمتلك تقنية التواصل أي يمتلك ما نسميه بالكفاية اللغوية المراسية.

– ينبغي أن لا تتعدى خصائص اللغة المكتسبة قدرات الطفل الذهنية على استيعابها وإلاَّ تعذر عليه اكتسابها. هذا مع العلم أنَّ اللغة المكتسبة تنظيم لغوي غني ومعقد ولا يمكن تحديده عبر المظاهر المجزأة.

تجسّد هذه الملاحظات أضواء جديدة على عملية اكتساب اللغة عند الطفل، إذ تجعل من الطفل في الواقع الموضوع الأساسي لدراسة الاكتساب اللغوي.

ومن هذا المنظور ينبغي أن تحتوي نظرية الاكتساب على النقاط الآتية:

1- طبيعة القواعد المكتسبة.
2- المبادئ الفطرية التكوينية.
3- الخبرة اللغوية الضرورية لإطلاق المبادئ الفطرية.

يبقى في نظر تشومسكي أنَّ المحيط اللغوي مهم لتحريك أواليات الاكتساب اللغوي(الحالة الأولية للاكتساب اللغوي) إلاَّ أنَّه ليس بمقدوره أن يقولبها من خلال نقل بناء إليها، ذلك أنَّ بنية الجهاز تأتي من الداخل، وتتطور بالذات، وفقا لبرنامج خاص بالجنس البشري.

ويؤكد تشومسكي على "أنَّ الأطفال في المجتمع الكلامي الواحد يصبحون جميعا على معرفة بالنظام الحاسوبي المعقد (أي النحو)في فترة قصيرة مكونة من بضع سنين، وهم يقومون بذلك من غير تعليم معلن أو اهتمام أو جهد واع، والدليل التجريبي الوحيد الذي لديهم ليساعدهم في هذه المهمّة المضنية غير كاف إلى حد كبير، لذلك ينبغي أن يكون لديهم مصدر آخر يعتمدونه في صياغة هذه المعرفة"[5]، فاللغة عند تشومسكي لا يمكن أن تتحقق على أساس التعلم التجريبي لأنَّ ذلك غير كاف، ويخلص إلى أنَّ الأطفال لا بدَّ أنَّهم يأتون إلى هذا العالم وهم مزودين بقدرة عقلية محددة وراثيا: وهي ملكة اللغة.

2-1- النحو الكلي وملكة اللغة عند تشومسكي: إنَّ النحو الكلي بمثابة نظرية عن خواص هذه الملكة المحددة وراثيا والتي تجعل من الممكن أن يتقدم الأطفال من "الحالة الأولية" في ملكة اللغة إلى "الحالة المستقرة" أي أنَّ الأطفال يتعلمون لغة مجتمعهم بسهولة وبسرعة وبمدخلات بالحد الأدنى من الخبرة. يقول في هذا السياق: " ربما ينظر إلى النحو الكوني في أنّه وصف لملكة اللغة المحددة وراثيا، وقد يعتقد المرء أنَّ هذه

الملكة أداة لاكتساب اللغة وهي مكونات مجبولة بالفطرة في عقل الإنسان تنتج اللغة المعينة من خلال التفاعل مع التجربة المتاحة، وهي أداة تحول الخبرة إلى نظام للمعرفة المتحققة ... فالنحو الكوني نظرية عن الحالة الأولية للملكة اللغوية التي تسبق أي نوع من الخبرة اللغوية "[6].إنّ المنهج الفطري عند تشومسكي لدراسة اكتساب اللغة، لا يعامل خبرة الطفل اللغوية كونها ذات أهمية بالحد الأدنى وحسب بل يعالج عملية النمو اللغوي- أي الانتقال من الحالة الأولية إلى الحالة المستقرة- على أنّها منفصلة ومستقلة عن أي من خصائص النمو الإدراكي عند الطفل.

يرتبط السؤال حول اكتساب القواعد بالكيفية التي يكتسب الأطفال قواعدهم، وقد قدم النحو التوليدي فرضيات عديدة حول فطرية القواعد والنحو الكلي مستدلا على ذلك بعدد من الأدلة النفسية وهي:

أولا:الاكتساب في مقابل التعلم.إنّ المعرفة الواعية، مثل معرفة قواعد الجبر ومبادئ الكيمياء العضوية تتعلم، أمّا المعرفة غير الواعية، مثل كيفية الكلام فمكتسبة والاكتساب يتمّ بطريقة غير واعية أثناء تعلم اللغة من المحيط.

ثانيا:الفطرية. تبنى أنواع المعرفة غير الواعية مثل معرفة كيفية التكلم مباشرة في الدماغ، وقد أشار تشومسكي في معظم كتاباته إلى أنّ العديد من اللغات فطرية، فالذهن يمتلك نظاما فرعيا متميزا لبنية أكثر تعقيدا يسمى الملكة اللغوية، أو عضو اللغة محدد وراثيا، شأنه في ذلك شأن سائر الأعضاء الأخرى[7]، لأنّ طبيعته الأساسية تعبر عن مورثات.

ثالثا: المشكل المنطقي في اكتساب اللغة. يذهب تشومسكي في العديد من كتاباته إلى أنّ اللغة ذات طبيعة فطرية ومؤسسة في الدماغ، أمّا قواعد النحو التوليدي فتكمن من إنتاج ما لا نهاية له من الجمل، واللغة نسق إنتاجي لا نهائي، يمكنك من إنتاج وفهم ما لم تسمعه من قبل، وترتبط هذه الخاصية اللانهائية بخاصية التكرارية التي تمكن من استعمال جمل مركبة داخل جمل أكبر أخرى إلى ما لا نهاية[8].

رابعا: أدلة أخرى تدعم النحو الكلي، إنّ المشكل المنطقي في اكتساب اللغة يشير إلى أننا نعرف أشياء عن نحو لغتنا لم نتعلمها من قبل. والبديهية في النحو الكلي ليست في الحقيقة هي المشكل المنطقي، بل هناك حجج أخرى تؤكد فرضية أنّ اللغة مؤسسة في الدماغ،[9] وهي فطرية وأنّ الناس يمتلكون نحوا كليا مشتركا.

تتميز ملكة اللغة -في نظر تشومسكي- بكونها متخصصة جدا، فهي لا ترتبط بوسائل حسية محددة، أي مستقلة عن الخواص الإدراكية الأخرى للعقل، وعلى هذا الأساس، تشبه اللغة المنطوقة كثيرا لغة الإشارة عند الصم، كما أنّ طريقة اكتسابها تماثل طريقة الاكتساب الأخرى إلى حدّ بعيد، أمّا القصور الحسي فأثره محدود على اكتساب اللغة، فالأطفال المكفوفون يكتسبون اللغة بنفس كيفية اكتساب الأطفال المبصرين لها، ويشمل ذلك كلمات اللون والتجربة البصرية مثل "يرى" و"ينظر". وهناك أناس يحققون معرفة لغوية تقرب من المستوى العادي في غياب أي دخل حسي يتجاوز ما يمكن أن يحصلوه بوضع أيديهم على وجه شخص آخر، وكأنّ الآليات التحليلية لملكة اللغة تقدح بالطرق نفسها إلى حدّ بعيد، بغض النظر عن الدخل هل هو سمعي أو بصري أو لمسي.[10]

يؤكد تشومسكي من خلال ما سبق على أنَّ الخواص والمبادئ في المعرفة اللغوية مستقلة بذاتها، منفصلة ومتميزة عن الخواص الإدراكية الأخرى للعقل، والملكة اللغوية مستقلة عن أي ملكة عقلية أخرى، وبما أنَّ الملكة اللغوية مستقلة فإنَّ النحو الكلي ينبغي أن يستقر بالدرجة نفسها عن البحث النظري في الخواص الأخرى للعقل، كما أنَّ البحث في اكتساب اللغة يجب أن يكون مستقلا عن البحث في النواحي الأخرى للنمو الإدراكي.

إنَّ مبدأ الاستقلال اللغوي الذي ظلَّ تشومسكي متمسكا به من الصعب قبوله بوجه خاص عند جيروم برونر، فلقد تصدى هذا العالم المتخصص في علم النفس الإدراكي لموقف تشومسكي الخاص بدور الخبرة في اكتساب اللغة والاستقلالية المزعومة للغة عن العمليات الإدراكية الأخرى.

كما أنَّ القول إنَّ الطفل يمتلك جهازا فطريا في الاكتساب، وإنَّه يمتلك نظرية لغوية معقدّة يطبقها على بيئته لا يستند إلى أدلة واقعية ملموسة.

2-نظرية النمو المعرفي لبرونر: يعدُّ التفاعل الإدراكي عند برونر في اكتساب اللغة عند الطفل نموذجا مميزا ومنافسا للمبدأ الفطري الذي ظلّ تشومسكي متمسكا به. وعلى خلاف الفرضية التي يقدمها تشومسكي القائمة على وجود بنى ذهنية مجردة لدى جميع الأفراد مستقلة تماما عن كل العمليات الإدراكية الأخرى، يؤسس برونر لنظرية جديدة لاكتساب اللغة عند الطفل وهي لا تقوم على قدرة لغوية مستقلة، إنّما يعتمد الطفل في تعلم اللغة على العمليات والقدرات الإدراكية نفسها كما في اكتساب المهارات الحضارية والاجتماعية المعقدة، وهذا ما يفسر جانبا مهما للغة باعتبارها شكلا من أشكال إدراك لأغراض التواصل بين الأشخاص.

تعدُّ اللغة في ضوء نظرية التفاعل الإدراكي لدى برونر مظهرا من مظاهر السلوك التواصلي تنمو من خلال التفاعل مع الآخرين، لذلك يجعل برونر العوامل البيولوجية غير كافية وإن كانت ضرورية لضمان تطور اللغة، وعليه يؤكّدُ أنَّ النمو اللغوي هو أحد مظاهر النمو المعرفي، والذي ينسجم بشكل مباشر مع التطور العقلي للطفل الذي يسبق اللغة، حيث ينمو تفكير الطفل من خلال تفاعله مع بيئته ثمَّ يتبعه الارتقاء اللغوي من خلال التطور العقلي عند الطفل.

2-1-التفاعل الاجتماعي واكتساب اللغة: تندرج أبحاث جيروم برونر ضمن مجال علم نفس النمو، وتستند نظريته في اكتساب اللغة على مشاهدته للأطفال وهم يتفاعلون مع المشرفين على تربيتهم في المختبر وفي بيوتهم وتسجيل الملاحظات لمدة عشرين سنة.

توصل برونر من خلال أبحاثه وتجاربه إلى أنَّ بيئة الطفل الخاصة بالنمو أكثر فائدة لمهمة اكتساب اللغة بكثير ممَّا افترضه تشومسكي، ذلك أنَّ الطفل يتعلم اللغة جراء استخدامها. فالطفل يتواصل مع أمّه أو شخص آخر قبل أن يتعلم كلماته الأولى بفترة طويلة، إذ ثمة صلة أساسية بين الكثير من سمات التواصل ما قبل اللغوي وتلك الخصائص التي تتعلق بالتواصل في الفترة المتأخرة من جهة والكلمات والجمل في اللغة التي يتعلمها من جهة أخرى.

ويؤكد برونر أنّ عملية اكتساب اللغة لا تحصل إلاّ في سياق الحوار والفعل "يحصل اكتساب اللغة في سياق الحوار والفعل الذي تنتظم فيه الأعمال المشتركة لدى الطفل والشخص الراشد وهذه الفعالية المشتركة تضع حدود الإشارة التي تحكم الإحالة المشتركة"[11]، وتحدد الحاجة إلى تصنيف الإحالات كما تؤسس الحاجة إلى التنويه عن القصد وفي النهاية توفر سياقا لتطوير الدلالات الصريحة.

2-2-مراحل المرور إلى اللغة عند برونر:

2-2-1-مرحلة ما قبل اللغوية: يبدأ تعلم الطفل للغة مع تطور وسائل التواصل ما قبل اللغوية كالإيماءات والإشارات باليد وحركات الوجه والأصوات كالبكاء والصراخ وما إلى ذلك. حيث يستفيد الطفل من هذه الأدوات التواصلية عندما يشترك في تفاعلات تعاونية مفيدة مع أمّه، ويصبح إتقانه لهذه الأدوات التواصلية الأساس الذي يطور الطفل منه ببطء وسائل تواصلية لغوية حقيقية أكثر فأكثر: الكلمات والعبارات والنحو.

إنّ ما يتعلمه الطفل في هذه المرحلة عن التواصل يساعده على فك تشفير النظام اللغوي، لأنّ التواصل يتحول إلى كلام من خلال سلسلة من التطورات في الأساليب التي تتحقق في السياقات المألوفة بين الطفل وأمه، في شكل صيغ يطلق عليها برونر صيغ الاهتمام المشتركة.

تعدُّ الصيغة مهمة تشارك فيها الأم مع الطفل وفي نيتها عمل شيء ما، بواسطة الكلمات وفي البداية ما لا يستطيع الطفل تدبره في الصيغة تقوم الأم بذلك من أجله. وعندما يصبح قادرا على فعل ذلك تطلب منه الأم فعل ذلك.

ويمكن توضيح أهمية صيغ الاهتمام المشتركة ودورها الفعال في تحقيق التواصل ما قبل اللغوي بالأمثلة الآتية:

- لعبة إغماض العينين.
- القراءة في كتاب مصور.
- ارتداء الملابس.
- الاستحمام.
- اللعب بالدمى.

وهذه الصيغ وسائل لدخول عالم اللغة والحضارة معا، ويقارن برونر هذه الألعاب بالألعاب اللغوية التي يقترحها فيتجنشتاين (L. Wittgenstein)وهذه الصيغ شبيهة بالألعاب اللغوية فهي بسيطة وتعتمد اللعب وهي عبارة عن نسخ من عالم مصغر للوسائل اليومية التي بواسطتها يتعاون الأفراد الأكفاء من حضارة ما في إحداث التكامل بين أصواتهم وأفعالهم لغرض تحقيق هدف مشترك معين.

إلاَّ أنَّ بعض الصيغ الخاصة بالطفولة ليست دائما ذات هدف، إنما تأتي لمجرد إمتاع الطفل أو لإشغاله أو لمجرد اللهو وحسب.

تؤدي هذه الصيغ دور وعاء الحضانة لتطور اللغة والحضارة، وتتكيف بشكل أساسي مع مهارات الطفل النامية، وهذا التكيف تستغله الأم من خلال تشجيعها للطفل خطوة بعد أخرى، لكي تجرب وسائل أكثر تعقيدا للمشاركة في التفاعلات الدائرة بينهما.

يتعلم الطفل في نظر برونر أشياء كثيرة حول اللغة في سياق العلاقات التفاعلية والتبادلات الاجتماعية التواصلية التي تربطه بأمّه، "ففي ظلّ هذه التبادلات والتفاعلات يتوصل الطفل إلى توظيف معرفته بالحالات الاجتماعية في تحديد معاني الألفاظ والمفاهيم التي يسمعها من أمّه وفي اكتشاف طريقة لغوية للتعبير عن هذه الألفاظ والمفاهيم باستعمال أشكال لفظية أولية"[12].

القراءة تطور معرفي: القراءة أداء ذهني اجتماعي في التواصل بين عقل الطفل وعقل الراشد، ويكون الطفل دائما في حالة استثارة موجهة، ويتمُّ إشباع حاجة المعرفة، بتفضيل دور الراشد إذ يتم إشباع هذه الحاجة عن طريق الاستماع وتفحص تعليقاته.

تشكل القراءة وسيطا تفاعليا يوفر فرصا ذهنية للتفاعل التبادلي بين فردين تربط بينهما علاقة في جوّ يسوده الأمن والحب. ويرتبط عمل القراءة بجميع الفعاليات الحسية المادية للطفل، إذ أنّ عملية القراءة تجعله مشغولا باستمرار بقراءة البيئة المادية الحسية، والاجتماعية، والرمزية بممارسة النظر، والسمع، واللمس، والشم، والإحساس، والحركة.[13] فالقراءة هي وضع جميع هذه العمليات الذهنية والحسية معا لإنتاج أداء القراءة.

ولتوضيح أهمية القراءة ودورها الفعال في تحقيق النمو المعرفي لدى الطفل نعرض واحدة من الصيغ التي درسها برونر وهي "القراءة في كتاب مصور"، حيث يقوم الطفل والأم بالنظر في صفحات كتاب مفتوح بالمشاركة وتقوم الأم بالإشارة إلى الصور المألوفة وذكر أسمائها.

وربما لا يسهم الطفل بالصوت في مرحلة مبكرة في التفاعل، ربما لكونه يريد أن يرى تقليب الصفحات فقط. وفيما بعد يبدأ الطفل بالاستجابة إلى إيعازات الأم مثل "آه، أنظر! ما هذا؟ " وربما يبدأ الطفل بإصدار أصوات فردية غير قياسية ومع ذلك تصبح منتظمة شيئا فشيئا مثل الأصوات "جي" وسيتم نطق ذلك ضمن الجزء المناسب من الصيغة – أي بعد إيعاز الأم- تتبعه عادة عبارة العرفان مثل هذا صحيح ! إنّها بقرة.

وكلما نما الطفل يبدأ بإنتاج نسخ أكثر قياسية من العبارات المناسبة. ومثل هذه الصيغة عبارة عن سلسلة من الحوارات المتوقعة والرتيبة يكون للأم والطفل فيها دور محدد. وتتضمن الإيماءات (مثل الإشارة باليد) والأصوات والأشياء ونقاط تركيز الاهتمام المشترك فيها. وتتناوب الأم والطفل في تطوير الفعل.

ويستطيع الطفل من خلال هذا العملية التفاعلية أن يفهم كل ما يجري حوله وهكذا سيشارك وبكفاءة وبشكل مثمر.

تعد هذه الصيغ البسيطة بمثابة عالم مصغر يسهل على الطفل تعلمها والمشاركة فيها في مرحلة مبكرة. وبسب هذه الأدوات التواصلية (الإيماءات الأصوات التي تشكل العدادات الرمزية لتلك الصيغ) فإنَّ الطفل يتآلف مع خواص اللغة.

2-2-2-المرحلة اللغوية:

إنَّ الطفل عندما يتعلم كيف يشارك في صيغ الفعل المشتركة فإنَّه يتعلم كيف يعمل مع عدد معين من المفاهيم والعلاقات التي يقوم عليها جميع النحو لجميع لغات البشر.

ذلك أنَّ المهارة النامية لدى الطفل في الوصول إلى المتطلبات البنوية والفكرية للتفاعلات ضمن الصيغ ينظر إليها من حيث كونها تساعد الطفل على استيعاب الكثير من الأدوات البنيوية والفكرية نفسها التي تتكون منها أنواع النحو في مختلف اللغات. ومن الطبيعي إذن أن يصبح اكتساب الطفل للنحو لمهمة فك التشفير أقل عناء ممَّا يتصوره تشومسكي، ذلك أنَّ الطفل يكتسب السمات الأساسية للمعرفة النحوية بواسطة مشاركته التصعيدية في صيغ الفعل المشتركة المبكرة –وهي الأحداث التفاعلية التي تتسم بها معظم خبرة الطفل ما قبل اللغوية،14 أي أنَّ خبرة الطفل المبكرة ليست فقيرة وغير مجدية في مهمة تعلّم اللغة كما يفترض ذلك تشومسكي.

لقد بحث برونر عن قدرة الأطفال الصغار على الدخول في الاهتمام المشترك مع الكبار باتباع خطتهم في النظر نحو الكيانات الخارجية.

إنَّ ظهور المهارات الخاصة بالاهتمام المشترك في الأشهر التي تسبق بداية اللغة يوضح أنَّ الأطفال في عمر سنة واحدة لديهم جميع المهارات الإدراكية الاجتماعية التي يحتاجونها ليدركوا المقاصد التواصلية عند الشخص الراشد ضمن سياق الصيغ الخاصة بتعلم اللغة.

فالطفل له القدرة على إدراك المقاصد التواصلية، أي فهم الأشياء في التفاعلات الاجتماعية يعتمد على قدرة الأطفال على فهم اللغة وعلى قدرتهم على فهم المقاصد التواصلية للشخص الراشد ضمن سياق اللعبة، ويكون مفعول اللعب هو إثارة انتباه الطفل إلى التواصل في حدّ ذاته، وإلى بنية الأفعال التي يتدخل فيها هذا التواصل، ويمكن القول بأنَّ مهمة الطفل هي اكتساب مفهوم البنية الذي يشكل اللعب مثالا له، ومن أجل اللعب ينبغي تعلم قواعد اللعبة15. ومن أجل إيجاد قواعد اللعبة، ينبغي ملاحظتها أولا، ثمَّ المقارنة بينها والاستدلال على علاقاتها، ويتم ذلك بواسطة المؤشرات الثلاثة:

- مظاهر الملفوظ (النبرة)
- مرفقات الملفوظ (الإشارة بالأصبع)
- ظروف الملفوظ (السياق وفعل التواصل)

عندما يفهم الطفل، في تفاعله مع الشخص البالغ، قواعد اللعبة، يمكنه أن يغير العناصر المتواجدة، إذ يستطيع أن يصبح هو نفسه الفاعل والبالغ وموضوع المبادرة. وعندما يفهم من دون وعي مثالا أولا للبنية، يمكنه أن يتعلم أمثلة أخرى مثل قواعد النحو بالمماثلة وهذا بالموازاة مع القواعد التي تتحكم في الفعل والانتباه[16]. وتبقى عملية اكتساب اللغة عند الطفل في نظر برونر رهينة التفاعل مع الشخص البالغ، أي أنَّ الطفل يبقى في حاجة لمساعدة البالغ في بناء وخلق اللغة.

برونر وتفسير حصول قواعد النحو: إنَّ الطريقة التي يتعلم بها الطفل التركيب اللغوي الملموس، هي الطريقة نفسها التي يتعلم فيها الكلمات، "ويجب أن يفهم الطفل أيَّ النواحي من مشهد الاهتمام المشترك يريد له الشخص الراشد أن ينكب عليه عندما يستخدم هذا التركيب اللغوي ومن ثمَّ يتعلم حضاريا بالمحاكاة ذلك التركيب من أجل تلك الوظيفة التواصلية"17، أي أنَّ الطفل يتعلم التركيب النحوي باستخدامه نفس العمليات الإدراكية عندما يتعلم الكلمة المفردة، فيستوعب قصد الأم عندما تضع الكلمات بتلك الطريقة، وسيساعد السياق الطفل على استيعاب قصد الراشد باستخدامه كلمة أو تركيب معين.

يدرك الطفل القواعد النحوية الخاصة بصيغ الجمل واستيعابها بفضل توافق هذه القواعد مع الإطار الفكري الذي يبنى لتنظيم الفعل المشترك والاهتمام المشترك، وهذا يرقى إلى القول بأنَّ النحو ينشأ على أنَّه مجموعة من القواعد التجريدية للنشاط المنظم بالمشاركة الذي أصبح نظاما ضمن حضارة مجتمع لغوي ما، يقول برونر: "...المتلقي على المستوى ما قبل اللغوي يساعد الطفل في فهم المعنى اللغوي للعبارات المرتبة بشكل مناسب التي تشمل بعض الحالات الإعرابية مثل الفاعل والمفعول به للفعل...وهكذا . والادعاء هو أنَّ الطفل يستوعب بشكل أولي متطلبات الفعل المشترك على المستوى ما قبل اللغوي، ويتعلم أن يميّز بين هذه المتطلبات على شكل مكونات، ويتعلم أن يدرك وظيفة العبارات التي توضع ضمن هذه البنى المرتبة بشكل متسلسل، إلى أن يصبح في النهاية قادرا على استبدال وحدات من المفردات المعجمية القياسية بأخرى غير قياسية، وتصبح العملية-بالطبع- ممكنة بوجود شخص راشد يقوم بتزويد الطفل بالعبارات وتوسيعها وتصورها في الوقت الذي يتفاعل فيه مع الطفل"[18]، ويضيف برونر أنَّ هذه العملية ليست ضربا من المحاكاة بل توسيع للقواعد التي تعلمها الطفل في أثناء الفعل المشترك.

كما أنَّ اللغة ليست نظاما حاسوبيا مجردا يتعلمه الطفل ويستخدمه بهذا الوصف، إنَّما هي وسيلة للتعبير عن المعاني وتوصيلها، أي أنَّ اللغة هي نتاج القدرات الإدراكية العامة التي توضع في الاستخدام التواصلي، وأنّ الملكة العقلية المستقلة المبرمجة وراثيا لاكتساب اللغة ليست غير ممكنة من ناحية التنبؤ وحسب بل هي غير ضرورية.

إنَّ جهاز اكتساب اللغة عند الطفل لا يمكن أن يشتغل بمعزل عن مساعدة الأم التي تدخل معه في سيناريو التعامل والتفاعل وهو الذي يولد ما يسميه برونر بالنظام الداعم لاكتساب اللغة (LASS) ويمثل المعطى الأولي الذي توفره اللغة وكذا إرادة التواصل بين الطفل والراشد في شأن لوازم اكتساب اللغة."فالتفاعل

بين جهاز اكتساب اللغة والنظام الداعم لاكتساب اللغة هو الذي يسمح للطفل بالانخراط في المجموعة اللسانية وكذلك الثقافة التي تشكل اللغة إحدى أدواتها المركزية "[19]، وهذا يعكس تماما حجة تشومسكي القائمة على افتقار الخبرة، طالما أنَّ الطفل ينشأ في البيئة الحضارية الاجتماعية التي توفر الرعاية بشكل سليم.

2-3- مراحل النمو العقلي للطفل وأبعادها التربوية: يحدّد برونر ثلاث مراحل أساسيا للنمو العقلي للطفل هي:

مرحلة التمثيل الحسي أو العملي (Représentation Inactive): وتبدأ هذه المرحلة من سن الميلاد إلى سن الثالثة حيث يستطيع الطفل القيام بأفعال وأنشطة حسية والاتصال المباشر بالأشياء، يحدث التعلم في هذه المرحلة عن طريق التعامل والتفاعل مع الأشياء الملموسة فمثلا لكي يتشكل لديه مفهوما عن المكعب أو يدرك المكعب وكيف يختلف المكعب عن الكرة لا بدَّ أن يمسك هذا المكعب، وتلك الكرة.

مرحلة التمثيل الأيقوني (représentation iconique): تبدأ من سن الثالثة إلى سن الثامنة تنمو خلالها البنية العقلية للطفل من خلال صور أو رسوم أو أفلام إضافة إلى قدرته على تكوين صور ذهنية عنها، تتشكل الصور الذهنية للأشياء في الدماغ على شكل أيقونات.

مرحلة التمثيل الرمزي (Représentation symbolique): يصبح الطفل في هذه المرحلة قادرا على التمثيل الرمزي فيتفاعل مع الكلمات والأرقام بدلا من الصور، وينتقل من مرحلة التعلم الحسي إلى مرحلة التفكير المجرد.

ومن خلال هذه المراحل الثلاث السابقة يستطيع الفرد التعرف على البيئة المحيطة به، ولذلك اهتم برونر كثيرا بالتعلم الاستكتشافي ومفهوم الاستكتشاف عند برونر مساعدة المتعلم على الوصول إلى المعارف بنفسه، ولذلك فهو يقترح وضع المتعلم في موقف يتضمن مشكلة تدفعه للتساؤل والبحث عن المعارف اللازمة لحل هذه المشكلة، وبالتالي يدفعه ذلك إلى تحقيق ذاتية بينية يمكن الانتفاع بها.

- كما يرى أنَّه بإمكاننا رفع مستوى إمكانيات الفرد وفهمه وحلّه للمشكلات إلى درجة ما فوق قدراته الحقيقية وذلك عن طريق التوجيه والمساعدة من الكبار أو التعاون مع الآخرين.

- يؤكد برونر من خلال أبحاثه على:

- ضرورة إثراء بيئة الطفل التي تشكل في النهاية المورد الأساسي لعملية اكتساب اللغة وهذا من خلال تفاعله مع أشخاص آخرين، وقد أكدت أبحاثه في مرحلة الحضانة والطفولة أنَّ الأطفال في هذه السن بإمكانهم أن يتعلموا أشياء كثيرة تفوق إمكاناتهم الطبيعية في الظروف العادية، ولوحظ نفس الشيء بالنسبة لمرحلة المدرسة، وكلّ هذا يؤدي إلى تنظيم فكر الطفل وتنمية قدراته المعرفية ليصبح في النهاية قادرا على تغيير البناءات المعرفية في سبيل الوصول إلى حلول للمشكلات، وهي فكرة تتفق في جوهرها مع نظرية المعالجة المعلوماتية التي ترى بأنَّ الفرد لديه القدرة على حل مشكلاته وذلك باستخدام استراتجيات تنظيم المعلومات، إضافة إلى استخدام التغذية الراجعة ليتمكن من ضبط وسائله واستغلالها أحسن استغلال.

-يركز برونر على أهمية اللعب في تحقيق النمو المعرفي للطفل لأنَّ اللعب يعكس قدرة الفرد على الوعي بنفسه ويساعده على التفكير في عدد أكبر من الوسائل والفرضيات لحل المشكلات، ويوضح برونر بعض الشروط التي تحسن من نوعية اللعب ونتائجه ومن ثمّ النمو المعرفي لدى الطفل وهي:

-اللعب بين طفلين يكون أكثر إنتاجية منه عندما يكون اللعب انفراديا أو جماعيا، وذلك بسبب التفاعل المعرفي الذي يحدث بين الطفلين.

-اللعب في حضور الكبار قد يكون أفضل عن طريق ما يقدمونه من تشجيع.

اللعب أكثر يؤدي إلى نشاط عقلي أكثر.

نوعية أدوات اللعب تحسن النتائج، إذ تعمل على إيضاح الوسائل والنهايات.

وهكذا يعكس الأطفال في اللعب إحباطا أقل عندما لا يصلون إلى حلول لأنَّه يعتبرونه تغذية راجعة بمعنى أنَّه يعطي فكرة تقويمية عن إنجازهم ولا يربطون ذلك بتقدير ذواتهم.

3.المقارنة بين تشومسكي وبرونر حول مسألة اكتساب اللغة عند الطفل : من خلال ما سبق عرضه من آراء حول مسألة اكتساب اللغة لدى الطفل عند كل من تشومسكي وبرونر تبيّنت لنا مجموعة من الاختلافات الجوهرية بين العالمين والتي تبدو أنها متعارضة من حيث المنطلقات والأهداف ويمكن ذكر هذه الاختلافات في الجدول الآتي:

آراء تشومسكي	آراء جيروم برونر
-وجود ملكة لسانية مستقلة ومبرمجة وراثيا	-الأطفال ليسوا مزودين بالفطرة بقواعد النحو الكلية ولا يمكن أن تتساوى مع جميع لغات العالم.
-اللغة نظام حاسوبي مجرد ومبرمج	-اللغة ليست نظاما مجردا
-وجود جهاز افتراضي لاكتساب اللغة(LAD) مستقل عن العمليات الإدراكية الأخرى.	-وجود نظام داعم لاكتساب اللغة (LASS) عن طريق التفاعل مع الآخرين.
-يقلّل من دور الخبرة في اكتساب اللغة.	-خبرة الطفل ليست فقيرة بل يدرك الطفل بما يدور حوله مما يؤدي به إلى دخوله في تفاعلات مع الآخرين .
-لا تتحقق اللغة على أساس التعلم التجريبي لأنَّ ذلك غير كاف.	-يكتسب الطفل السمات الأساسية للمعرفة النحوية عن طريق المشاركة مع الآخرين بصفة تصعيدية.
-اللغة ذات طبيعة فطرية وموجودة في الدماغ.	اللغة تتحقق بفعل التفاعل مع الآخرين وتنمو من خلال المشاركة.
-اللغة ذات نسق داخلي إنتاجي لا نهائي إبداعي تتحقق بفعل أوليات الاكتساب ويتمثّل دور اللساني في اكتشاف نظامها الداخلي المجرد.	-اكتساب اللغة عند الطفل قائم على مبدأ التفاعل مع الآخرين وهو ما يساعده على خلق اللغة وبنائها.

الشكل رقم(1): الفروق الدقيقة حول مسألة اكتساب اللغة عند كلّ من تشومسكي وبرونر

نستخلص ممّا سبق: وجود معارضة فكرية بين العالم اللساني تشومسكي وعالم النفس جيروم برونر حول مسألة اكتساب اللغة عند الطفل من حيث تباين النظريات والمرجعيات الفكرية التي ينطلق منها كل باحث، فاللساني تشومسكي يؤمن بمبدأ فطرية اللغة (النظرية الفطرية). أمّا بالنسبة لجيروم برونر فيؤمن بمبدأ التفاعل الإداركي الذي يدخل في إطار النظرية التفاعلية. وبناء على هذا تختلف الأهداف التي يصبو إليها كل باحث، فإذا كان تشومسكي يبحث في المبادئ العامّة التي تشترك فيها جميع اللغات وسعيه إلى اكتشاف كليات نحوية موجودة بالفعل على مستوى أدمغة الأفراد، فإنّ برونر يؤسس لنظرية تعلّمية جديدة في ظلّ سياق الحوار والفعل تمكن الأطفال بجواز مرورهم إلى اللغة، واكتشافهم لمختلف المقاصد التواصلية للغة عن طريق تفاعلهم مع الآخرين، لذا يركز على أهمية البيئة المحيطة بالأطفال والعمل على إثرائها.

وأعتقد أنّ الآراء التي يثيرها جيروم برونر حول مسألة اكتساب اللغة عند الطفل مهمّة جدّا في إطار السياق التعلّمي، وكان لها أثر في مناهج التعليم بالولايات المتحدة وباقي دول العالم، وحقّقت نظريته نتائج ملموسة على مستوى الواقع التعلّمي والتعليمي.

أمّا آراء تشومسكي رغم أهميتها فقد بقيت في مستواها التجريدي العالي وخاصة فيما يتعلق بالبرمجة التكوينية للغة البشرية وفي ظلّ هذا تنتظر أبحاثه الكثير من الإثباتات العلمية لتفسيرها.

الخاتمة: تعكس هذه الدراسة المبنية أساسا على المقارنة بين الآراء التي يقدمها ناعوم تشومسكي وجيروم برونر في مسألة تطور اللغة عند الطفل مجموعة من النتائج يمكن ذكرها على النحو الآتي:

إنّ اللغة ناتج القدرات الإدراكية العامة التي توضع في الاستخدام التواصلي، وإنّ الملكة العقلية المستقلة المبرمجة وراثيا لاكتساب اللغة ليست غير ممكنة من ناحية النشوء بل هي غير ضرورية، وإنّ الأطفال ليسوا مزودين بالفطرة بقواعد النحو الكلية القابلة للتطبيق بالتساوي على جميع اللغات في العالم، إنّما يتكيفون للدخول في تفاعلات الاهتمام المشترك مع الكبار وليفهموا مقاصد الكبار واهتمامهم، وفي النهاية يتبنون أدوار الكبار في تلك التفاعلات، بما في ذلك استخدامهم أعرافا لغوية معينة.

إنّ الطفل الذي لا يستطيع أن يستفيد من تفاعل فردي مع البالغ الذي يمكنه من بناء اللغة، قد يظل ضحية للحرمان إلى الأبد، وذلك لأنّه لن يقوم ببناء شيمات أو خطاطات تحليل منطقي يؤدي إلى التجريد، وهنا تتجسد أهمية المراحل الأولى من التعلم، بما أنّ اللغة تمثل وسيلة ضرورية بالنسبة لأغلب التعليمات اللاحقة، فلا ينبغي الاستخفاف بأهمية اشتغالها الجيّد، ويلزم القيام بكل شيء من أجل إتاحة تمينها، ويكون الهدف النهائي هو بَنينة اللغة وبالتالي بنينة الفكر.

هوامش::

[1] - Chomsky. Noam, (1965), Aspects of t-he theory of syntax, Cambridge Mass, The MIT Press, p59.

2 - Chomsky, Noam, (1975), Reflexions on language, New York, Pantheon p13.

3- نفس المرجع، ص 14.

4- ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية دراسات لغوية اجتماعية نفسية، ط:1. بيروت –لبنان: 1993، دار العلم للملايين ص93.

5- جون إي جوزيف وآخرون، أعلام الفكر اللغوي من التقليد الغربي في القرن العشرين، تر: أحمد شاكر الكلابي، طرابلس: 2006، الكتاب الجديد، ص262.

6- جون إي جوزيف وآخرون، أعلام الفكر اللغوي من التقليد الغربي في القرن العشرين، ص262.

7- رشيدة العلوي، النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، ط: 1. الرباط: 2014، دار الأمان، ص165.

8- رشيدة العلوي، النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، ص، 166.

9- المرجع نفسه، ص167.

10- شومسكي نعوم، اللغة والمسؤولية، تر: حسام البهنساوي، القاهرة: 2005، مكتبة زهراء الشرق، ص290-291.

11- جون إي جوزيف وآخرون، أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي في القرن العشرين، ص264.

12 - BRUNER. J. 1987 . Comment les enfant apprennent a parler ;Trad. Franc, Paris, Edition Retz, p13.

13- يوسف قطامي، نمو الطفل المعرفي واللغوي، ط:1، الأردن: 2000، الأهلية للنشر والتوزيع، ص407

14- جون إي جوزيف و آخرون، أعلام الفكر اللغوي...، 268.

15- بريت ماري بارث، تعلم التجريد استراتيجية لبناء القدرات والكفايات: تر: عبد الكريم غريب، ط:1، الدار البيضاء: 2007، منشورات عالم التربية، ص140.

16- بريت ماري بارث، تعلم التجريد استراتيجية لبناء القدرات والكفايات، ص140.

17- جون إي جوزيف و آخرون، أعلام الفكر اللغوي...، ص277.

18- جون إي جوزيف و آخرون، أعلام الفكر اللغوي،ص269.

19 - BRUNER. J. 1987 . Comment les enfant apprennent a parler ;Trad. Franc, Paris, Edition Retz, p1315.

قائمة المراجع:

[1] - Chomsky. Noam, (1965), Aspects of t-he theory of syntax, Cambridge Mass, The MIT Press.

2 - Chomsky, Noam, (1975), Reflexions on language, New York, Pantheon .

3- ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية دراسات لغوية اجتماعية نفسية، ط:1. بيروت –لبنان: 1993، دار العلم للملايين.

4- جون إي جوزيف وآخرون، أعلام الفكر اللغوي من التقليد الغربي في القرن العشرين، تر: أحمد شاكر الكلابي، طرابلس: 2006، الكتاب الجديد، ص.262.

5- رشيدة العلوي، النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، ط: 1. الرباط: 2014، دار الأمان.

6- شومسكي نعوم، اللغة والمسؤولية، تر: حسام البهنساوي، القاهرة: 2005، مكتبة زهراء الشرق.

7- يوسف قطامي، نمو الطفل المعرفي واللغوي، ط:1، الأردن: 2000، الأهلية للنشر والتوزيع.

8- بريت ماري بارث، تعلم التجريد استراتيجية لبناء القدرات والكفايات: تر: عبد الكريم غريب، ط:1، الدار البيضاء: 2007، منشورات عالم التربية.

9 - BRUNER. J. 1987 . Comment les enfant apprennent a parler ;Trad. Franc, Paris, Edition Retz.